مرمعاني الهجرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

لعل أكبر أيام الإســـلام بل أيام الإنسانية كلها بعد يوم الرسالة هو يوم الهجرة

لقد كانت الهجرة الكريمة بدء عهد عزة الإسلام وانتشاره ، عهد الجهاد الإيجابي في سبيل الله بالنفس والمال . إن النبي صلوات الله عليه كان طيلة يجاهد في سبيل الله بالنفس منذ الأول بتعريضه نفسه الشريفة للخطر الشديد في تبليغ الدعوة قبل الهجرة . أما المسلمون قبل الهجرة فكان جهادهم جهاد المستضعفين : كان جهاد صبر على الأذى وتمسك بالدين رغم الاضطهاد ، ومن يقرأ تاريخ الإسلام قبل الهجرة يرَ عجباً من أمثلة ذلك التمسك رغم الأذى البالغ والعذاب الشديد . لكن الجهاد في سبيل الله يجب ألا يقتصر على الجهاد السلبي ، جهاد الصبر على الأذى من غير مقاومة إيجابية للمؤذين . صحيح أن المسلم يجب أن يتمسك بدينه وأن يعمل به رغم كل المثبطات ورغم كل الصعاب لكن يجب عليه أيضاً ألا يقر للذل ، ولا يقيم على الضيم ، فإن الإسلام دين عزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . فإذا وُجد المسلم بدار مَذلة ، لا يستطيع أن يقيم فيها دينه كما يجب أن يقام ، وجب عليه أن يهجر تلك الدار ولو عزت عليه ، وأن يهاجر منها إلى حيث يستطيع أن يعبد ربه ويقيم دينه حراً عزيزاً لا يخضع إلا لله ، ولا يرى لأحد حقاً عليه إلا بحق الله

وهذا هو درس الهجرة الأول . لقد هاجر النبي صلوات الله عليه من مكة وهي أحب بلاد الله إليه ، وهاجر المسلمون الأولون وقلوبهم تتلفت إلى ما خلفوا وراءهم من الأهل والمال والوطن . تتلفت ولكن لا تؤثر على الدين من ذلك كله شيئاً . إذا لم يمكن إعزاز الدين وإحياؤه وإقامة أحكامه إلا بمفارقة ما يعز من أهل ومال ووطن ، فليفارقه المسلم ويهاجر في سبيل الله فراراً بدينه وطلباً لإعزازه . « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » وصدق الله

إن واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو خالقه الذي خلقه ورزقه الأهل والولد والمال والوطن . الأهل والولد والمال والوطن والنفس من أجل نعم الله على الإنسان ، لكن من الحق أن يجعل الإنسان نعم الله عليه سبباً لمعصية الله أو الكفر به ، من الحق المطبق أن يؤثر الإنسان على ربه شيئاً مما وهبه ربه ، فإيثار الدين على كل ما يعزه الإنسان من مال وأهل ونفس ووطن هو درس الهجرة الثاني ، الذي يجب أن يتعلمه المسلم ولا ينساه ، هما درسان عظيمان من دروس الهجرة النبوية الكريمة يجب ألا ينساهما المسلم : درس عدم الإقرار للذلة في الدين بأي صورة أو لأي سبب ، ودرس إيثار الله وديته على كل شيء مما خلق الله ومما يعلق به قلب الإنسان

إن قلب المسلم يجب ألا يستشعر خوفاً غير خوف الله ، ولا رجاء إلا رجاء الله الذي خلقه والذي له مقاليد السموات والأرض وبيده نواصي العباد . هذا هو التوحيد المطلق ، وهذا هو الإسلام لله ، ومدى التفاضل والتفاوت في هذا واسع عظيم كما نرى ، لكن على المسلم أن يجتهد في تحقيقه ما استطاع . عليه أن يحب الله فوق كل شيء ؛ ويؤثر الله على كل شيء ، ويضحي في سبيل الله إذا لزم الأمر بكل شيء ، ولو اقتضى ذلك الخروج في سبيل الله عن المال ، والتضحية في سبيل الله بالنفس والأهل والمهاجرة في سبيل الله عن الوطن ، إن كان الوطن مما لا يستطيع المسلم أن يقيم فيه الدين

لكن من فضل الله علينا وعلى المسلمين اليوم أن عافانا من ذلك الامتحان الشديد ، امتحان ترك الوطن في سبيل الدين . فوطننا والحمد لله وطن إسلام وليس وطن كفر ، وهو والحمد لله وطن أمن للدين والمتدينين وليس وطن اضطهاد كما كانت مكة

حين هاجر منها الرسول صلوات الله عليه . فموقف المسلمين اليوم في هذا البلد وفي كل بلد مسلم ليس هو موقف الرسول صلوات الله عليه والمسلمين في مكة قبل الهجرة ، ولكن هو موقف الرسول صلوات الله عليه والمسلمين في المدينة بعد الهجرة . أعزوا الإسلام فيها ودافعوا عنه كل مهاجم أو مغير ، ولم يقبلوا لحظة واحدة أن تكون كلمة في مدينتهم فوق كلمة الله ، أو يكون الحكم في أرضهم إلا لله ، وهذا هو واجب المسلمين الآن ، واجبهم أن يعزوا دين الله في بلادهم كما أعزه رسوله والمؤمنون الأولون ، فلا يقبلوا في دينهم مطمعاً ، ولا لأحكامه مخالفة ، واجبهم أن يثبتوا في بلادهم ويثبتوا الإسلام فيها كما فعل النبي في المدينة ، وأن يدفعوا عن دينهم وبلادهم كل مهاجم ومغير

وليس الدفاع عن الإسلام وبلاده بالسيف والمدفع فقط . هذا هو آخر الدفاع ، لكن أول الدفاع وأهمه هو الدفاع عن روح الإسلام في بلاده . إن روح الإسلام إذا ضعف في المسلمين فلن يتحملوا في سبيل الإسلام أذى ولا جهداً ، فضلاً عن أن يريقوا في سبيله من دمائهم دماً . إن روح الإسلام وحبه يجب أن يتغلغل في قلب كل مسلم ، فإن تغلغل فسيحرص المسلمون على إقامة الدين وسيعرفون كيف يعزونه ويعزون أنفسهم به

لكن أنى لروح الإسلام أن يتمكن من قلب المسلم وهو يجهل الإسلام ولم يُنَشَّأ فيه ؟ إن النشأة والتربية هي التي تصبغ الناشئ بصبغتها وتوجهه في الحياة . والنشأة الإسلامية مفقودة في الأقطار الإسلامية منذ أمد طويل ، ولو كانت موجودة كما ينبغي أن توجد ، لعرف المسلمون دينهم كما ينبغي أن يعرفوه ، وإذن لعرفوا كيف يحبونه ويعزونه كما ينبغي أن يحبوه ويعزوه . إذن لعرفوا كيف يدفعون شر العوامل الكثيرة التي تحاول أن تضعف الإسلام في نفوسهم وتغزوه في قلوبهم ، ولعرفوا ماذا يقبلون من هذه المدنية الغربية المغيرة عليهم وماذا ينبذون . ليتهم عرفوا الإسلام ! إذن لأدركوا أن المدنية الغربية ليس فيها ما يحتاجه المسلمون إلا هذا العلم الطبيعي التجريبي الذي هو ملك للعقل البشري عامة ، والذي ينبغي أن يكون ملكاً للأمم كافة ، لأنه نتيجة استعمال العقل الصارم في بحث ما خلق الله وليس نتيجة العاطفة ، فليس فيه شيء من خصائص الأمم التي تظهر عادة في آدابها . العلم التجريبي هو كل ما يحتاجه المسلمون من هذه المدنية الغربية . أما اجتماعيات الغرب فليس المسلم في حاجة إلى شيء منها ، لأن رب الشرق والغرب وخالق الخلق كلهم هو الذي شرع للمسلم وللإنسانية كلها أحكام الاجتماع وأصوله مفصلة في الإسلام ، كما أجمل للمسلم وللإنسانية كلها أمر طلب العلم الطبيعي في القرآن إجمالاً هو أشبه شيء بتفصيل

لكن إذا كان شباب المسلمين قد فاتهم أن يربّوا تربية إسلامية ، فإن عليهم أن يتداركوا من ذلك في أنفسهم ما ضيعه الناس . ولا يسوّفن في هذا ، فإن الأمر ليس أمر حياة أو موت ، وعزة أو ذلة ، في الدنيا فقط ، ولكن هو أمر سعادة أو شقاء إلى الأبد في الآخرة . ولا يقولن إن الفرصة فاتت ما داموا لم يتعلموا الدين على وجهه في المدارس . إن الفرصة موجودة والطريق إلى تدارك ما فات مفتوح بسيط ممتع . أويدري المسلمون وشباب المسلمين ما هو ؟ قراءة سيرة الرسول صلوات الله عليه ، وقراءة القرآن ، وقراءة الحديث ! ثم بعد ذلك أو بين ذلك قراءة تاريخ الخلفاء الراشدين

إن القارئين من شباب الإسلام من بنين وبنات يقبلون على قراءة الروايات ، فلماذا لا يقبلون على قراءة السيرة النبوية وهي تاريخ نشأة دينهم وحياة نبيهم ؟ إنها أمتع من أي رواية صاغها الخيال ، وهي بعد ذلك حق وقع ، ومنها يعرفون من أمر دينهم ، كيف نشأ وكيف نما ، مالا يعرفه كثيرون ممن لم يدرسوا الدين إلا في كتب الفقه والأحكام

ثم إنهم يقرأون الأدب العربي : يقرأون لأدبائه المحدثين وقد يقرأون للأقدمين . فلماذا لا يقرأون الأدب السهل الخالص البالغ في كتب الحديث ؟ إن كتب الحديث الصرف ليست كتب حواش وشروح كتلك التي يتصورها الشبان تدرس في الأزهر . إنها كلام الرسول صلوات الله عليه يحادث أصحابه : يأمرهم وينهاهم ويعظهم ويهديهم ويشير عليهم فيما يستشيرونه فيه من أمور الحياة . إنها أنفع لطلاب الأدب من أي أدب آخر يمكن أن يقرأوه أو يدرسوه ، لأن أمور الحياة كلها يتناولها ذلك الكلام الكريم بأعذب لفظ وأسهل أسلوب : لفظ الرسول صلوات الله عليه وأسلوبه في تبليغ رسالة الله للناس ليأخذ شبان المسلمين أي كتب الحديث الصحيحة شاءوا . ليأخذوا البخاري مثلاً وليقرأوه